

وجهات نظر

عن الشاعر والتزاماته القومية وخيانة المفكرين وموقف المثقف الفلسطيني من قضية بلاده

سليم الخضراء الجيوسي

المهمات الملقاة على عاتق مثقفينا ازاء القضية الفلسطينية كثيرة . ولكن المثقفين قوة غير منظمة في العالم العربي . اننا لم نقد ، على الصعيد الثقافي ، من تجربتنا المريرة . لقد دحرتنا مطالب الحياة وقهرتنا ظروف العالم حولنا ؛ فلم نحاول ان نعيش قضيتنا كمثقفين . ولقد كان على المثقفين الفلسطينيين ، بصورة خاصة ، اذ وجدوا انفسهم في متاهات النفي ، ان يندروا جزءا كبيرا من جهدهم لقضيتهم . وبدل ان يتركوا العالم حولهم يغزو انفسهم ويهتك سياجاتها ويستعبد بشروطه ومتطلباته الجمهورية وحدوده الحشنة ، كان عليهم ان يكتلوا المواهب اللامعة بينهم ويدفعوها نحو التخصص والتعمق والتآزر ثم فرض نفسها على العالم حولها كقوة متحدة واعية في خدمة القضية . كان يجب ان يكون للقضية كيان ثقافي يساعد الموهوبين على التخصص في خدمة جميع وجوها - عسكريا ، قانونيا ، اقتصاديا ، تاريخيا ، جغرافيا ، سياسيا ، اجتماعيا ، وفوق كل شيء ، وطنيا . وان يكون هؤلاء المختصون قوة دافعة يعتمد على معرفتها وتخصصها ويخشى نقدها واعتراضها وقدرتها المتآزرة على كشف المناورات .

وماذا فعل المثقفون في السنوات الخمس عشرة الماضية بهذا الشأن ؟ صدرت بعض الكتب التاريخية عن النكبة ، وبعض الكتب النقدية التي حاولت

هل على الشاعر والفنان مهمة وواجب تجاه القضايا القومية ؟

ان التزام الشاعر والفنان هو دوما بالمصير الانساني ، ورؤياه يجب ان تكشف له ، اذا كانت منبثقة عن حدس صادق ، ابعاد الفاجع في الحياة . هذه الحياة هي دوما الحياة حوله . فهو ان كان اصيلا استشراف في انتاجه روح عصره العميقة وتطلعات الانسان حوله واشواقه ومنابع قلقه . انه ، حتى لو تخطى روح عصره ، يحملها معه ، يبدعها من جديد ابداعا مبنيا على جوهرها . اذا فكل فنان اصيل مبدع عندنا ملتزم بقضية المصير العربي . قد تختلف رؤياه عن سواء ، وفي اختلافها غنى للفن وللقضية ، ولكنها تظل دائما رؤيا صادقة ما دامت تصدر عن فنان اصيل مبدع .

ولذا فكلمة « مهمة » في هذا السياق تبدو منفصلة عن واقع العلاقة بين الفنان وعصره ، وكان التزامه وظيفة يمكن قبولها او رفضها . الالتزام الفني لا علاقة له بالارادة والتصميم على اداء واجب معين . انه التزام ينبع من اعماق الفنان المتفتحة دوما لتلقي المؤثرات ، المنكشفة ابداء على الفاجع في الحياة حوله وعلى نوازعها العميقة .

اني ارى ان مشكلة الالتزام في الفن (وهذا يختلف عن الالتزام الفكري) هي مشكلة اصالة وموهبة وعمق انساني - لا مشكلة تثقيف وتصميم على اداء واجب قومي .

الكشف عن مناحي الضعف والانحذال والفساد في الحياة العربية . واستجاب عدد كبير من المثقفين لنداء العمل السياسي ، وبينهم نسبة كبيرة من الفلسطينيين الذين وجدوا في العمل السياسي عزاء واملا . ان الفلسطيني ، بطبيعة غربيته ، قلق ؛ والقلق يدفعه باستمرار الى التحرك . فهو يدخل في الحركات السياسية استجابة لدافع التحرك الدائم الذي يدفعه اليه قلقه وغربيته - انه يسعى واعيا ولا واعيا ، الى إيجاد حل لمشكلة غربيته الطويلة التي لا يسمح له تناسيها في اي بلد عربي . غير ان الفلسطيني ، مهما انضوى ، لا يمكنه ان يجد حله النهائي في العقائدية العربية التي تستهدف بناء العالم من جديد . ذلك لان علله الحقيقي مفقود اصلا ؛ ارضه التي يجب ان تنبثق منها كل حركة ثورية ناجحة لا وجود لها على الاطلاق في الزمن الحاضر ؛ ولذلك فعمله السياسي تشوف نحو المستقبل الذي يحمل امكان عودته الى جذوره الراسخة .

ولقد كان على المثقفين ، ان ينظموا فيما بينهم العمل الواعي لجميع ابعاد القضية الفلسطينية ويتحدوا معا على فرض خطورة القضية على الحياة العربية المعاصرة . هذا ما فشلوا في عمله .

انه ليس نائرا حقيقيا ، بل تعوزه جرأة الروح والبسالة . لقد ساوم كثيرا ، وانصاع ، وقبل بالتسويات ، وبانصاف الحول ، وبالمهادنة ، ورضي بالتفسيرات اللبقة التي اعطاها السياسيون دفاعا عن تحاذلهم او تحكمهم . لست اظن ان الانسانية عرفت فترة أسيء فيها استعمال الكلمات ذات الدلالات الكبرى كما أسيء اليوم . ولم ننج ، نحن العرب ، من هذا . فباسم الوطنية ، او الثار ، او الحياة الافضل ، او الشعب والجمهير ، تعطى التفسيرات « المتقنة » لكل ضروب التعسف والخذلان . ولقد صمت المثقفون ازاء هذا صمتا رهيبا ، مع انهم الوحيدون القادرون على اعطاء الكلمات مدلولاتها الصحيحة . ان كل ما فعلوه هو انهم ساندوا السلطات ببلاغتهم . لقد تناسى المثقفون مركز السرطان الحقيقي ، وسمحوا للدعايات المختلفة ان تغزو بلادهم ، واشترك البعض في اغاني التمجيد الكبرى لاشياء لا تعيش في وجدان الامة - كما اشترك البعض الآخر في حملات الاهاجي لعقائد اصبح الشعب يجد فيها حله الوحيد ، كالاشتراكية مثلا . لقد فعلوا كل هذا غافلين عن قضيتهم الاولى ، متناسين الحنجر الغروس في القلب .

وماذا فعلت شخصيا ؟ اعتقد ان عالم النكبة يعيش بكل ابعاده في انتاجي الفني : في شعري ، وفي روايتي التي اكتبها الآن . اما فكريا ، على صعيد الكتابة النثرية ، فلم لي لم افعل ما كان بامكاني فعله في السنوات الاخيرة . ومع اني لم اخذل التزامي الاخلاقي قط ، ولم اسخر قلبي يوما الا لما اولن به يحكم هذا الالتزام ، الا اني آثرت الفن اجمالا على النضال الفكري المباشر . ولكنني فنانة قبل ان اكون اي شيء آخر ، واکره السياسة كرها شديدا : فأرضها زلقة مائجة ، بينما ينبع الفن من منابع الروح الاصيلية . فان كان عليّ ان ادخل عالم السياسة يوما (والنضال الفكري لا يمكنه ان يتخطاه) فاني ادخله برعب وأمی .

اما الحل ، الحل المثالي والعملية الواقعي - لكن اترى يختلف الحل المثالي هنا عن الحل العملي الواقعي؟ - فان بينهما فروقا على صعيد الحياة اليومية؛

أما هل كان المثقف « خائنا » للقضية ؟ فاني ابغض كلمة « خائنا » ، فبالرغم من مدلولها القادح استعملت في السنوات الاخيرة كتجارة رابحة حتى بلغت اقصى درجات الابتذال . ومع ذلك فلا بد من القول بان بعض المثقفين خانوا القضية . غير انه يبدو لي اجمالا انه ، حتى المثقف الذي يود خدمة القضية ، يائس من العمل لها وكأنه يشك سلفا في امكان حلها . اترى يقوده الحدس المشوش ، ام تفاهم الوعي ؟ لقد كانت رؤيا المثقفين ، فيما يتعلق بالقضية ، (ولم تزل) ، رؤيا محدودة وضيقة وخالية اجمالا من الذكاء . ولا شك ان المثقف خذل القضية ولم يقدر خطورتها . اعتقد ان المثقف في بلادنا يشعر بشيء من الشلل ازاء « السياسة » و « السلطة » . وبهذا يعكس محدودية الدور الذي يلعبه ، وضيق افقه . انه ، على الاجمال ، منضو في التيارات السطحية المهيمنة على الحياة العربية ، بدل ان يكون رائدا لما في اعماق هذه الحياة من تشوف .

اما عندما نواجه قضية عظيمة فالحل الواقعي هو دوما الحل المثالي . ان خطورة القضية ، وجلالها ، وعلاقتها ، لا بالحياة المادية وحدها ، بل باعمق روح الامة ، تجعل اتحاد الحلين امرا محتوما . ان علينا ، في حلنا لها ، ان نكتشف ابعاد روحنا وامكان انتصارها من جديد على منابع خذلانها القديم ومكامن عجزها الفاجع الذي حطمها .

لقد احدثت النكبة في روح الامة فجوة يجب ان نعلمها . وكل ثورة في البلاد العربية كانت تحمل معها املا جديدا بامكان سد هذه الثغرة الروحية ، املا جديدا بان تقف الامة ، من جديد ، موقف الشرف - وكل خذلان لهذا الشوق النابع من شخصية الامة ذاتها خذلان للثورات انفسها . ان امكان الانتصار على المأساة يجعل من عالم النكبة عالما متأزما وحركيا . فما دام في عالمنا الحاضر حركة تهدف الى البناء والعطاء ، يظل الامل حيا نابضا في الضمير - انه الامل في «غسل العار» اذا اردنا استعمال تعبير عربي صميم ، ولا بد من استعماله هنا لانه تعبير يعيش في لغة امتنا وفي روحها . ان امكان التغلب على المأساة واسترجاع « الشرف المضاع » يجعل التراجع والتخاذل فجيمة جديدة ، لانه يحطم الامل الوحيد في المحافظة على القيم التي اعدنا بناؤها في انفسنا بعد الثورات المنبثقة عن النكبة . ان عالم النكبة عالم حزين ولكنه حي ومتوتر ، يختلف اختلافا جذريا عن عالم الموت الذي يتخلط فيه اليأس بالاستسلام . فامام النكبة يبدو الاستسلام مستحيلا ، لان فيه خذلانا لجميع القيم التي نؤمن بها . انها قيم لم تزل هشة ، تقبع بحذر في انفسنا - قلقا ، وصلبة ، تخشى الانسحاق من جديد . واي سقوط لهذه القيم سيغني ذروة اليأس وبداءة التشتت والانسلاخ الحقيقي عن واقع برهن على انه لا يستحق الا الازدراء . ان سقوط القيم الحرة ثانية سيغني سقوط الجميع من جديد .

وماذا يحدث في عالمنا ؟ انك اذا راقبت ما يجري تكاد تقترب من حافة الجنون ! يقولون انهم يريدون خدمة التاريخ ! هذه العبارة تضحكني ، فهي تبدو افخم واضخم من المصير الذي تشير اليه . ان علينا ان نصنع انفسنا ولا يهمنا ان نقف

امام التاريخ او ان ندير له ظهورنا ، فالتزامنا ليس لهبل لاخلقيتنا وحياتنا ولحاجتنا الروحية . ان القائد الذي يضع « صنع التاريخ » امام منظوره سيلجأ حتما الى مناورات السياسة المفسدة للمحبة وللالتزام الخلفي . ان علينا ان نعشق التزامنا وما ينضوي فيه من اندفاع اويحي ، ان نتناسى « دورنا في التاريخ » ونسكب روحنا كلها وكل هوس قلبنا وعقلنا لبلوغ هدف عظيم . ان الامة العربية ، خلال هذه السنة ، تواجه امكان الانتصار مرة ثانية ، ولكنها تواجه ايضا امكان نكبة جديدة صامتة تتسلل اليها بالرغم من اصوات الاعلان الهادرة التي ترهق القلب والروح . والمتقف هنا يواجه دوره الحاسم في اعنف معركة فكرية عرضت نفسها عليه منذ سنة ١٩٤٨ . فالحل السليم لا يمكن ان يصدر الا عن نفوس سليمة - النفوس التي ساومت وجمعت بشعارات « النضال العربي » دون ان تعيش ساعة من هذا النضال لا يمكنها ابدا ان تقف من قضية فلسطين موقف الشرف . اما المثقفون والرواد فيبدو ان عليهم ، الآن ، في سبيل هذا الموقف ، ان يكونوا مستعدين لمعاداة العالم اللامتجانس الذي يهيمن على الموقف اذا ما راوغ او ابدى وجوه نشازه من جديد . فهل ترى ، اذا حصل هذا ، سيكون للمثقف شرف الاعلان عن موقف ينفيه عن عالمه برفضه لهذا العالم وبالحاحه على جسمية المواجهة الشريفة الحاسمة لقضية فاجعة؟